المنـــــاخ وأنشطة سكان وادي سوف خلال القـــرن 19

من الحتميـــة إلى التكيـــف

د/بوتـــرعه بلال/ قسم العلوم الاجتماعية /جامعة الوادي

الملخص:

يحـاول هـــذا المقـال تسـليط الضـــوء علـى جوانـب مهمـة مـن تـاريخ منطقـة وادي سـوف ونمـط الحيـاة الاقتصـادية لسـكان المنطقـة في جوانـب متعـددة كالزراعـة والصـناعة والتجـارة والعمـران والـتي عرفـت رحلـة طويلـة مـن التطـور اسـتجابة للظـروف المناخيـة الـتي عرفتهـا المنطقـة خـلال القـرن 19 والـتي سـعى مـن خلالهـا أهـل سـوف التكيـف مـع قسـاوة هذا المناخ من أجل تشييد صرح حضارته والحفاظ على بقائه.

الكلمات المفتاحية: المنـــــاخ . النشاط الزراعي. النشاط التجاري. النشاط الصناعي. العمران

Abstract :

This article attempts to highlight important aspects of the history of the Wadi Souf region and the economic lifestyle of the inhabitants of the region in various aspects such as agriculture, industry, trade and urbanization, which have experienced a long journey of development in response to the

climatic conditions of the region during the nineteenth century. This climate is for the construction of the edifice of its civilization and the preservation of his survival.

تمهيد:

يقول فيكتور كوزن**Victor cousin** "**أعطني خريطة لدولة ما معلومات وافية عن موقعها ومناخها ومائها و مظاهرها الطبيعية الأخرى ومواردها و بإمكاني في ضوء ذلك أن أحدد لك أي نوع من الإنسان يمكن أن يعيش في هذه الأرض، وأي دولة يمكن أن تنشأ على هذه الأرض و أي دور يمكن أن تمثّله هذه الدّولة في التّاريخ** ." فالبيئة لها أثر كبير في أنشطة الإنسان وإنجازاته.

لقد كان لأهل الصحراء إسهاما كبيرا في تشييد صرح العديد من الحضارات الإنسانية على مر التاريخ، فقد تحدى الإنسان الصحراوي بعزيمته وشجاعته على الرغم من قلة إمكاناته وبساطتها قساوة البيئة وظروفها الصعبة ليثبت وجوده ويصنع تاريخه وتشييد حضارته.

تعتبر مدينة وادي سوف من المدن الصحراوية القديمة التي عرفتها الجزائر فقد دخلها الرومان في القرن الأول للميلاد وبنوا بها مدن وقرى، إلى غاية بداية الفتوحات الإسلامية في أفريقيا بقيادة عقبة بن نافع.

بدأ بعدها ظهور المماليك العربية البربرية الإسلامية الأولى في شمال وجنوب الجزائر، وتعتبر قبيلة عدوان أولى القبائل العربية التي استقرت بوادي سوف في القرن 7م، لتبدأ العديد من القبائل الأخرى في الوفود إلى المنطقة كأولاد جامع والربايع والفرجان.

لقد سعت هذه القبائل ومنذ وصولها إلى منطقة سوف إلى الاستقرار والعمل الدؤوب من أجل البقاء، فقد عرفت هذه القبائل الزراعة والتجارة والصناعة التقليدية البسيطة.

من الصعب الحديث عن تاريخ سوف الاقتصادي بمعزل عن واقعها الجغرافي والظروف البيئية والتي لها تأثير بالغ على الحياة الاجتماعية والاقتصادية لأهل سوف وهذا ما سأوضحه في هذا المقال .

1. الصحراء الجزائرية:

تغطي الصحراء أكثر من ربع مساحة سطح القشرة الأرضية، وتشغل مساحة تقدر بـ 45.5 مليون كيلومتر مربع، وتكون في معظمها على هيئة صحاري جافة أو شبه جافة أو صحاري باردة، وتتجمع معظم هذه الصحاري في المناطق شبه الاستوائية بين خطوط العرض من 30 شمالاً إلى 30 جنوبًا.

والصحراء من التضاريس الجغرافية الموجودة في كل قارات الأرض، وهي موجودة أيضًا على كواكب أخرى ، "وتتوزع الصحاري في العالم على طول قطاعين متقطعين، أحدهما إلى شمال خط الاستواء والآخر إلى جنوبه وتوجد عموما في المناطق الداخلية للقارات"[1]، وقد وضع العرب للصحراء نحوًا من أربعين اسما لكن العرب ميّزوا بين أنواع كثيرة من الصحاري، واستعمل العرب في أشعارهم ألفاظ (صحراء)، (قفر)، (بيداء)،

(فيافي) ، وأشتقّ الاسم من الفعل صَحَرَ، "يقال صَحَرَ اللبنَ : طبخه. وصَحَرَته الشمسُ: آلمت دِماغَه.

والصَّحْرَاءُ: هي الفضاء الواسع الذي لا نبات فيه"[2].

وتدخل الصحاري في العرف الجغرافي تحت ما يطلق عليها أسم الأقاليم الجافة، وتعرف بأنها المناطق التي تتميز بندرة الماء، والجفاف (ندرة الأمطار)، وقلة الغطاء النباتي أو انعدامه كما أنها تعاني عجزًا في التوازن المائي (المفقود أكبر من الوارد إليها)، و تعرف الصحراء بأنها أراض جافة رملية أو هي جزء عقيم أو قاحل من الأرض، وتخلو من المجاري المائية الدائمة ، شبه قاحلة، شبه جرداء، ولا يختلف التعريف الجيولوجي كثيرًا عن التعاريف السابقة ، فالصحراء منطقة يبلغ معدل سقوط الأمطار25 سنتيمترًا أو أقل سنويًا وبالتالي تكون خالية من الحياة النباتية ، بحيث لا تسمح بوجود عدد ملموس من السكان، وهي بقاع مغطاة برواسب قارية من الرمل والحصى كما في صحراء الربع الخالي على هيئة كثبان رملية، أو يغطيها الجليد الجاف والرّكامات الجليدية كما في الصحاري القطبية.

وتحتل الصحراء الكبرى الجزء الأكبر من شمال إفريقيا، وهي أكبر الصحارى الحارة في العالم بمساحة تفوق الـ 9 ملايين كم مربع، وهي منطقة قاحلة مقفرة تغطي جزءًا كبيرًا من وسط إفريقيا وشمالها، وتكاد تمثل حاجزًا طبيعيًا بين شمال إفريقيا ووسطها.

وتمتد الصحراء الكبرى من الغرب إلى الشرق أي من المحيط الأطلسي إلى البحر الأحمر، على طول 3000كلم، ومن الشمال إلى الجنوب أي من البحر الأبيض المتوسط إلى بداية المناطق الاستوائية ، على طول 1500 كلم ، وتغطي نحو 90% من مساحة

الجزائر وهي منطقة سهلية قليلة الارتفاع وتتكون من صحاري رملية (العرق) وحجرية (حمادة)[3].

وتزخر الصحراء الجزائرية في مناطق كثيرة بأعداد من السكان ينتشرون عبر أرجائها الواسعة ، فمنهم المستقرين في تجمعات سكانية حضرية ، أو شبه حضرية والبعض الآخر يمارس حياة بدوية قوامها الرعي وتربية الماشية والإبل وتميز [4]حياتهم التنقل الدائم أو الموسمي بحثا عن الكلأ .

وبين ثنايا هذه الصحراء تتكون الواحات وهي في معظمها مناطق خصبة وتجري تحتها العيون والجداول ويتوفر عندها النبات نسبيا وفرص العيش والنشاط ، ومن هذه المناطق منطقة "وادي سوف" التي لا تعتبر منطقة طبيعية بقدر ما هي بشرية ساهم في تكوين شكلها نشاط الإنسان بقدر كبير بمشاركة العوامل الطبيعية مما أضفى عليها شكلا خاصا نابعا من حاجة السكان[5] ، ويوحي كل تغير بوجود حاجة ، وأن هناك هدف وغاية لأي اثر سواء في تغير شكل وسطح المنطقة أو طريقة العيش أو طبيعة العمران .

2. الإطار الجغرافي لوادي سوف:

1. الخريطة والموقع: تقع وادي سوف في الجنوب الشرقي للوطن تحدها من الشمال ولايات(تبسة،خنشلة،بسكرة) ومن الشرق الجمهورية التونسية بشريط حدودي طوله 300كلم،أما من الجنوب ولاية ورقلة وغربا ولاية بسكرة والجلفة و ورقلة،تتربع وادي سوف على مساحة إجمالية تقدر بـ 44.585 كلم^2،ويسكنها حوالي 562.973 نسمة(حسب إحصاءات سنة 2000).

تتوزع ولاية الوادي على 12 دائرة إدارية وتنقسم إلى واديين مختلفين هما:

- منطقة وادي سوف وتقع وسط العرق الشرقي وتظم 22 بلدية.
- منطقة وادي ريغ وتقع في الأراضي المنبسطة وتظم 08 بلديات.

2. مظاهر السطح: يتسم إقليم وادي سوف بمظهرين رئيسين هما :

العرق: تقع مدينة الوادي – أغلب مساحتها- في العرق الشرقي الكبير، والعرق عبارة عن رمال ناعمة ذات ألوان بيضاء وصفراء تتقاذفها الرياح على حسب اتجاهاتها مشكلة بذلك ما يعرف بالكثبان الرملية[6] ، وهي مرتفعة قد تصل إلى 200 متر وتعرف بالغرود[7] .

المنخفضات والأودية: حيث تعتبر منطقة وادي سوف أكثر المناطق انخفاضا في العرق الشرقي الكبير،وهذا ما سمح بوجود المنخفضات والأودية بين الكثبان الرملية.

3. المناخ السائد: قبل التطرق إلى المناخ الذي يسود مدينة وادي سوف تجدر الإشارة أن المناخ العام الذي يسود إقليم العرق الشرقي الكبير الذي تعتبر الوادي جزءا منه، هو المناخ الصحراوي الجاف الذي يمتاز بالحرارة الشديدة صيفا والبرودة القاسية شتاءا وهو حار طيلة أيام السنة، وتصل درجة الحرارة صيفا إلى 50 درجة مئوية،أما في الشتاء فقد تصل درجة الحرارة إلى ما دون الصفر.

والجدول التالي يوضح متوسط درجات الحرارة في سوف في الفترة الممتدة بين(1920-1928) [8]:

الشهـــور	جانفي	فيفري	مارس	افريل	ماي	جوان	جويلية	أوت	سبتمبر	اكتوبر	نوفمبر	ديسمبر
الفـــترة بـــين 1928-1920	17.4درجة	20.2 درجة	24.2 درجة	29.1 درجة	34 درجة	39.3 درجة	43.1 درجة	42.2 درجة	37.7 درجة	30.6 درجة	23.1 درجة	17.8 درجة

- **الأمطـار**: تعـرف مدينـة وادي سـوف بشـحة أمطارهـا بسـبب بعـد المدينـة عـن البحر ويعتبر خليج قابس بتونس أقرب بحر للمنطقة ويبعد حوالي 350 كلم^2 وعـادة مـا تسـقط الأمطـار في وادي سـوف بـين شـهري نـوفمبر وفيفـري بمتوسـط سنوي يقدر بـ 80.30 ملم[9] .

- **الرياح**: تعرف مدينة الوادي حركة هوائية نشطة ناتجة عن جفاف المنطقة وندرة تساقط المطر وانعدام خصوبة التربة وتشهد الوادي أنواع مختلفة من الرياح نذكر منها [10] :

الشهيلي(القبلي): وهذه الرياح تكون جنوبية وجنوبية شرقية يطلق عليها **السيروكو** وهي رياح تمتاز بالحرارة الشديدة والجفاف.

البحري(الشـرقي): وهـي ريـاح صـيفية منعشـة،يهب علـى وادي سـوف مـن جهـة الشرق آتيا من خليج قابس وغالبا ما يكون في المساء ويستمر إلى الليل.

الغربي: وهـو ريـاح بـاردة .

3. تأثير المناخ على الحياة الإقتصادية لأهل سوف في القرن 19 م:

"إن البيئة هي الوسط الذي يعيش فيه الإنسان ويمارس فيه نشاطه ويحصل منها على حياته من غذاء وصحة ومأوى ومختلف الحاجات" [11] ، وعلى هذا الأساس فالبيئة ليست مجرد عناصر مادية أو طبيعية معزولة فقط، وإنما هي مجموعة الموارد المادية والإجتماعية والثقافية المتاحة التي يسعى الإنسان من خلالها إلى إشباع حاجاته البيولوجية ويكوّن نمط من العلاقات في تفاعله مع غيره وكذلك كل ما يمكنه من العيش والبقاء والتطور وتأمين المستقبل له ولخلفه.

لقد كان لقسوة الطقس في سوف تأثيرا كبيرا على حياة الإنسان وأنشطته في هذه المنطقة،ويعرف مناخ هذه المنطقة بالحرارة مرتفعا صيفا والبرودة الشديدة شتاءا، وما زاد هذه الصعوبة شدة هو بعدها عن البحار حيث يقع أقرب بحر لها بمدينة عنابة على بعد 390 كلم، وخليج قابس بتونس على بعد 305 كلم.

وقد حاول سكان وادي سوف التكيف مع بيئتهم الصحراوية المعروفة بصعوبة مناخها و قساوة طبيعتها، والتي أثرت كثيرا في حياة السكان الإجتماعية والإقتصادية، وفيما يلي سنتعرف على أوجه تأثير الظروف البيئية على الأنشطة الإقتصادية والفكر العمراني لأهل سوف في القرن 19 .

1.3. أثر المناخ على النشاط الزراعي لأهل سوف في القرن 19 م:

يعتبر اكتشاف الإنسان الأول للزراعة أعظم حدث في تاريخ البشرية،وأستطاع الإنسان بفضلها من توفير متطلبات عيشه الأساسية، فقد أتسمت المجتمعات الزراعية البسيطة بإكتفاءها الذاتي وكان أول الأمر الإنتاج من أجل الاستعمال لا من أجل البيع[12]. وقد

عرف المجتمع السوفي الزراعة منذ القديم إلا أن نشاطه الزراعي هذا واجهته العديد من الصعوبات التي تحداها أهل سوف، فوجود مدينة الوادي في إقليم العرق الشرقي والذي يتسم بالمساحات الكثبانية الرملية الكبيرة،جعل من ممارسة الزراعة والفلاحة مطلبا صعب المنال وضربا من التحدي الصعب.

- **غرس النخيل:** يعتبر غرس النخيل أبرز الأنشطة الفلاحية التي عرفها أهل سوف منذ أمد طويل،وتعتبر هذه الشجرة مباركة وميمونة عند أهل سوف عبر مر التاريخ، وقد دخلت هذه الشجرة إلى وادي سوف من الشرق الأوسط لبلاد العرب[13].

تمثل النخلة و التمور الغذاء الأساسي للسكان ومصدر رزق لهم، فقد أشار الرحالة المغربي عبد الله بن محمد العياشي في كتابه الرحلة العياشية إلى إهتمام أهل سوف قديما بغرس النخيل والعناية بها قائلا:(**هي خط من النخيل مستعرض في وسط الرمل قد غلب على أكثره، وفيه بلاد عديدة، وماؤها طيب غزير قريب من وجه الأرض، أخبرني أهل البلد أنهم إذا أرادوا غرس النخيل بحثوا في الأرض قليلا حتى يصلوا إلى الماء، فيغرسونها بحيث تكون أصولها في الماء،ثم يردون عليها الرمل فلا تحتاج إلى السقي أبدا، ويعالجونها بأبعار الإبل والغنم وغيرها، فيضعونها في أصولها ولولا ذلك لماتت** ...[14])

إلا أن زراعة النخيل في منطقة وادي سوف كان أمرا شديد الصعوبة لعدم وجود موارد مائية سطحية، وهذا ما دفع سكان المنطقة إلى حفر أحواض واسعة الإمتداد تبلغ مئات

الأمتار طولا وعرضا تصل أعماقها إلى 16 متر، والتي تتطلب من السوفي التحلي بالصبر والفطنة والذكاء حتى يتمكن من حفرها.

ويختلف عمق هذه الحفر على حسب قرب الماء أو بعده، فالغوط في مناطق الجنوب من الوادي بإتجاه غدامس تكون أكثر صعوبة كون الحفر قد يصل إلى 15 متر أو أكثر حتى يتم الوصول إلى الماء، في حين تكون في المناطق الشمالية الشرقية أقل من الجنوبية ويصل عمق الغوط في المناطق الشمالية الشرقية إلى 5-6 أمتار [15]، وهذا ما يفسر تزايد غراسة النخيل في هذه المناطق.

وفور الانتهاء من إعداد الغوط وحفره تأتي المرحلة الموالية وهي مرحلة غراسة الحشان [16]،هذه الأخيرة تغرس على بعد مترين عن الماء،وبعد غرسها يتكفل بسقيها يدويا من البئر إلى أن تشتد وتمتد جذورها وتصل الماء الباطني يتركها الفلاح في رعاية الله ويتوقف عن سقيها، وقد بلغ عدد نخيل وادي سوف سنة 1860 م حوالي 60 ألف نخلة وبلغ العدد 154 ألف نخلة سنة 1883م[17].

ولا تنتهي معاناة الفلاح السوفي عند هذا الحد بل تأتي بعد هذه المراحل كلها عملية رفع الرملة، وهي العملية الأساسية عند الشروع في إنجاز غوط جديد أو أثناء توسيع الغوط القديم، ويقوم الفلاح بهذه الأعمال لوحده أو يقوم بإستئجار عمال يسمون بـ الرمالة،وكانت الوسيلة في إنجاز هذه الأعمال تقتصر على القفة والزنبيل[18].

و قد كان الفلاح السوفي مجبرا للدخول في صراع مرير ضد قوى الطبيعة خصوصا الرياح، حيث تعتبر مكافحة الرمال من المعارك المستمرة التي يخوضها السوفي مع

الطبيعة،سعيا إلى المتابعة الدائمة لاتجاهات الرياح لتجنب دفن الغوط خاصة رياح البحري القادم من الشرق والذي يحرك ملايين الأطنان الرملية إلى مزارع النخيل(الغوط) [19]، هذا الأمر دفع بأهل سوف إلى وضع مصدات للرياح لتغيير اتجاهاتها وهذا ما يعرف بالزرب، وهي عبارة عن مصدات هوائية تتكون من جريد النخيل تمنع هذه الزروب الرمال من التحرك تجاه الغوط وتشكل كثبان رمليه صغيرة تمنع بمرور الزمن الرمال من الزحف تجاه النخيل.

لقد سعى الفلاح السوفي منذ زمن طويل بكل ما أوتي من قوة أن يقلل من صعوبة وقساوة الظروف الطبيعية والمناخية بأفكاره البسيطة والتي تتطلب جهدا عضليا كبيرا،إلا أن هناك ظروف مناخية لم يستطع مجابهتها كالرياح الساخنة أو ما يعرف بالشهيلي، وهذه الأخيرة التي تتسبب في إتلاف محاصيل التمور بسبب تعرضه للجفاف الشديد.

كما تعتبر الأمطار رغم قلتها أحد العوامل المتسببة في فساد محاصيل التمور خصوصا إذا كانت نزولها في فصل الخريف(أكتوبر /نوفمبر)،وهي الفترة التي تشهد جني التمور وتسبب الأمطار ما يعرف بالخمج [20]، وقد شهدت المنطقة مواسم تمور كارثية تعرف بالخموري [21]، و هذا ما جعل الفلاح السوفي يغطي عراجين التمور بأكياس بلاستكية، هذه الأخيرة تسرع في عملية نضج التمور إضافة إلى أنها تحمي المحاصيل من التلف والخمار في حال سقوط المطر.

- **زراعة النباتات الموسمية (الخضر والفواكه):**

لم يكتف أهل سوف بزراعة النخيل فقط، بل كانت لهم زراعات موسمية كزراعة الخضر والفواكه،ورغم بساطة وسائله إلا أن الفلاح السوفي كان يمتاز بالفطنة والذكاء و إستغلال الظروف الطبيعية لصالحه.

فقد أستغل أهل سوف مساحات الأرض تحت النخيل لزراعة متطلباتهم من الخضر وبعض الفاكهة فقد خصصت الجهة الشرقية لزراعة النباتات التي يحتاج إلى أوراقها كالخس وغيره على إعتبار أنها معرضة لأشعة الشمس منذ الشروق إلى غاية منتصف النهار،أما الجهة الغربية من حوض النخيل فقد أستغلها الفلاح لزراعة ما يحتاج لدرناته كاللفت والبطيخ والجزر [22]، وكان يعتمد في سقي هذه الزراعات على البئر والخطارة والماجن والسواقي و الميزاب.

2.3. أثر المناخ على النشاط الصناعي لأهل سوف في القرن 19 م:

إن التكوين الجيولوجي لسوف عبارة عن رمال، فهي بذلك تفتقر لجيوب صخرية من المعادن والمواد الأولية مما جعل المدينة غير مؤهلة لقيام صناعات ذات قيمة [23]، إضافة إلى أن عملية نقل المواد الخام من المناطق المجاورة كان شبه مستحيل بوسائل النقل التقليدية التي كانت متوفرة قديما والمتمثلة في الجمال والبغال.

إلا أن هذه الظروف لم تمنع من قيام صناعات تقليدية في المنطقة، فقد ظهرت بعض الصناعات التقليدية التي زاوجت بين ذكاء أهل سوف وبساطة المواد الأولية المتاحة فأنتجت مصنوعات كان لها دورا فعالا في الخدمات المحلية المنزلية والتي كانت تستمد موادها الأولية من نباتات المنطقة ومزارعها وحيواناتها وصخورها، فمن النخلة تصنع

الأواني كالطبق والمثرد والقنينة، و من ليف النخيل تصنع الحبال التي تستعمل للخطارة وحبال حزم الحلفاء والحطب فوق الجمال والبغال، كما يصنع من عصي الجريد قوائم المنسج وعصاة النيرة والحمارة والسدة والدوح.

ومن أصواف الأغنام وأشعار الماعز وأوبار الجمال يتم نسج الملابس و الأفرشة وإعداد الخيام، ويتم دبغ الجلود لتصير جاهزة لمختلف الصناعات الجلدية.

أما الحجارة الباطنية فيتم تحويلها بالحرق إلى جبس لتشييد المباني والمنشئات العمرانية كالمساجد والمدارس والمحلات التجارية وغيرها .

3.3. أثر المناخ على النشاط التجاري لأهل سوف في القرن 19 م:

إن تواجد مدينة الوادي في وسط محيط من الرمال جعلها تعيش عزلة كبيرة عن المناطق المجاورة والبعيدة، إضافة إلى قلة الموارد الداخلية وهذا ما دفع أهل سوف إلى ممارسة التجارة منذ القديم بحكم الظروف الطبيعية والحياة الصعبة، والتي فرضت عليهم إختراق رمال العرق الشرقي لتوفير حاجيات المنطقة ومتطلباتها وهذا ما جعل الأسعار تخضع لظروف النقل أكثر من خضوعها لمبررات إقتصادية.

كما أن بعد المسافة من جهة ليبيا، فغدامس تبعد 14 مرحلة بالقافلة مع وجود كثبان رملية نحو الجنوب جعل التعامل مع هذه الوجهة التجارية محدودا مقارنة بالتعامل مع التلول في الجزائر وتونس التي لا تتطلب سوى 4 أو 5 مراحل بالقافلة للوصول إليها، كما أن كثبانها الرملية منخفضة [24] مقارنة بكثبان المناطق الجنوبية للعرق الشرقي.

4. تأثير المناخ على المساكن وثقافة العمران في وادي سوف: عرفت مدينة وادي سوف بنمط عمراني متميّز حتى سميت بمدينة الألف قبة وقبة، وهذا النمط أملته الظروف الطبيعية أحيانا وثقافة أهل المنطقة أحيانا أخرى، فالتوسع العمراني للتجمعات السكانية في سوف أواخر القرن 19 وبداية القرن 20 كان في معظمه يتجه نحو الشمال انطلاقا من عاصمة "الوادي" بحكم وجود طبقات التافزة واللوس المستخدمة في البناء بالمناطق الشمالية والشرقية مع صعوبة نقلها عن طريق الدواب لمسافات بعيدة نحو الجنوب، كما أن ارتفاع حجم الكثبان الرملية جنوب سوف لا يشجع على التوسع في زراعة النخيل التي ترافق التوسع العمراني يضاف إليها عمق طبقة الماء[25] .

أما شكل البناء والعمران في سوف فقد أعتمد على الجبس لكونه المادة المتوفرة بالمنطقة ناهيك عن ملائمته لحرارة الجو، فإمتداد القباب في سوف هو تكيف مع الطبيعة بحيث أنها تتفادى توضع الرمال عليها وتسمح بإنسياب مياه الأمطار لمنع تضرر الجبس والبناء الذي لا يحتمل الرطوبة، كما أن القباب تعكس أشعة الشمس المحرقة وتمنح السكن مساحة تهوية أكبر[26].

إن حرارة الجو الملتهبة في سوف صيفا فرضت نوعا من الترحال "الهجرة المؤقتة" لمعظم سكان الحضر في سوف حيث يُغادرون القرى للذهاب صيفا إلى منازل صيفية صغيرة قرب مزارع النخيل طلبا للانتعاش والرطوبة ليلا. وقد عرفت وادي سوف العديد من أنواع المساكن لعل من بينها[27]:

أ_ مساكن الرحل: وقد كان يعيش في هذه المنازل البدو الرحل من أهل سوف وغيرهم حيث كانت الخيمة أنسب المساكن لأهل سوف في العرق لسهولة إنشائها وتحويلها، ولا يوجد إلا البعض منها قرب القرى.

والخيمة عبارة عن بيوت من شعر الجمل استعملها أهل سوف كملجأ معتدل في الصيف إضافة إلى أنها توفر الحماية لقاطنيها من الرياح وأمطار الشتاء.

ب_ المساكن الريفية: هذا النوع من المساكن يستخدمه شبه الرحل من المتحضرين من أهل المنطقة وأحيانا الرحل في موسم جني التمور، وعادة ما يتواجد هذا النوع من المساكن بالأرياف قرب الغيطان، وقد عرف هذا النوع من المساكن تطورات عديدة عبر الزمن نذكر من أنواعه:

1 _ دار الكاف: كانت من أقدم الملاجئ التي استخدمت في سوف ويتم بناؤها من خلال حفرة جانبية في سفوح الكثبان الرملية ذات الأراضي الصلبة، وتكون حيث توجد طبقة التافزة التي لا تسمح بانهيار الملجأ، كما تستخدم دار الكاف لحفظ المنتجات الزراعية في الغيطان.

2_ الزريبة: وهي عبارة عن مسكن مؤقت ومناوب تستخدم من طرف البدو والحضر وتعتبر ملجأ من جريد النخيل نجدها بأعداد كبيرة خاصة في الجنوب ضواحي الوادي بالبياضة وعميش، وتعتبر سكنا وسطا ما بين الخيمة والمنزل، فالرحل الين هم في طريقهم للتحضر والاستقرار والذين ليس بإمكانهم الحصول على منزل أو لا يتحملون العيش في الأماكن المغلقة لتعودهم على حياة الصحراء يمرون بالزريبة كمرحلة تطور.

3_ دار الخـزين: وتستخدم من طرف شبه الرحل في طريقهم نحو التحضر والاستقرار وتمثل دار الخزين مرحلة نحو بناء المنزل، وشيدت من طرف شبه الرحل الذين يستقرون قرب غيطانهم في فصل جني التمور أثناء الخريف وبشكل مؤقت وأحيانا يتم بناء ديار الخزين بجانب بعضها البعض.

4_ مسـاكن الغيطـان: تُبنى من طرف سكان الحضر قرب الغيطان لينتقلوا إليها في الصيف طلبا لاعتدال الجو وكذا في موسم جني التمور، ومساكن الغيطان في الأصل ما هي إلا تطورا لما يُعرف بالزريبة والتي أصبح يُستخدم في بناؤها الجبس وعادة ما تكون غُرفها صغيرة وبقباب وتغوص في الرمال بحولي نصف متر تقريبا طلبا للرطوبة والاعتدال.

ج_ منازل الحضر بالقرى والمدن: أهم ما يميز منازل الحضر في سوف القباب بمختلف أنواعها والمنزل الحقيقي في سوف يتضمن بالضرورة فناء مغلق، تصطف حوله الغرف وتُعرف بالديار والمدخل دائما محجوب عن النظر بواسطة حائط متعرج لكي لا يكشف للأجانب ما يجري داخل البيت لما يكون الباب مفتوحا، وفي الجهة الجنوبية للمنزل يتم بناء أقواس مفتوحة للشمال وتُعرف بالسباط الظهراوي ويخصص للجلوس في فصل الصيف حيث الظل والإعتدال موسم الحرارة ، وأحيانا يتضمن المنزل أقواسا في الجهة الشمالية تُعرف بالسباط القبلاوي ويخصص لفصل الشتاء فالنساء تجلسن في فصل الصيف للقيام بأعمال النسيج تحت السباط الشمالي(الظهراوي) ليكون العكس في فصل الشتاء.

ويوجد بالمنزل غرفة للمؤونة تُعرف بدار الخزين عادة ما تكون في الجنوب لكي تتلقى أقل حرارة لحفظ الأغذية، كما نجد حيز خاص بالحيوانات لكون السكان في سوف حتى ولو كانوا فقراء تجد لديهم الماعز والدجاج.

أما المدخل الخارجي للمنزل فيكون متبوعا برواق واسع يسمى السقيفة حيث يُستقبل الضيوف، غير أن الأكثر يسرا يبنون غرفة ملحقة بالسقيفة تُعرف بدار السقيفة أو دار الضياف، كما يشمل البيت السوفي فناء داخلي يُعرف بالحوش وبئر حوله[28].

أما عن مواد البناء المستعملة في البناء في وادي سوف فهي محلية تمثلت في الجبس، حيث يقومون بإستخراج التافزة وحرقها وتهريسها حتى تُصبح كالدقيق المسحوق ليُصبح جاهزا للبناء .

أما الأبواب فتختلف من عائلة إلى أخرى تبعا للمستوى الإجتماعي للعائلة، فالأسر الغنية تستعمل الأبواب المنقوشة والتي تُجلب من تونس في حين أن الأسر الفقيرة كانت تستعمل الأبواب المصنوعة من جذوع النخل، والمغطاة أحيانا بصفائح من القصدير كما كان يستعمل الجريد وجذوع النخيل في التسقيف[29].

ومن خلال ما سبق نلاحظ أن مفهوم الإستدامة موجود منذ القدم في عمران وادي سوف كما يبدو وقد طبقه أهل سوف في عمرانهم من خلال الإستغلال الأمثل للموارد المتوفرة ومحاولات التكيف مع الظروف المناخية المحلية.

إن نمط العمران يحكي تاريخ المجتمع ويشكل جغرافيته ويعكس أيديولوجيته كما أنه يشارك في صياغة بنية المجتمع وثقافته [30]، وتجلت بعض مظاهر هذه البنية والثقافة في

تحقيق نوع من التوافق بين التنمية العمرانية من جهة وحاجات السكان من جهة أخرى ومن بينها:

- التقارب بين المتساكنين من أجل الاستهلاك الراشد للمجال مما يعني التقليل من المسافات التي على الأفراد قطعها يوميا للتمكن من قضاء حاجاتهم، وهذا ما نلاحظه في بناء أهل الواد حيث المنازل متقاربة والشوارع متفرعة كالأغصان.
- اندماج الوظائف داخل النسيج العمراني وخلق مناطق سكنية مختلطة قادرة على تلبية أكبر قدر من المتطلبات، فقد كان أهل سوف يستخدمون الساحة الوسطى في الحي السكني كسوق وكمكان للتجمع ولإقامة الأفراح وغيرها.
- تحقيق الأهداف الإجتماعية والثقافية والبيئية للسكان بتوفير الراحة والأمن ومراعاة الخصوصية وسلامة البيئة.

لقد توصلت الأبحاث المختلفة في قطاع مواد البناء استدامة مواد البناء التقليدية كالجبس والطين والأخشاب والتي أستخدمها أهل سوف في البناء ، لكونها نابعة من البيئة وذات ديمومة عالية و خصائص فيزيائية تساعد على العزل الحراري وهي قابلة لإعادة الاستخدام وهذا ما نجده في عمران أهل وادي سوف والذي عرف بالإستدامة والتوافق مع البيئة[31].

خاتمة:

إن قسوة الظروف المناخية التي ميزت البيئة الصحراوية عبر مر العصور لم تمنع ظهور حضارات انسانية تحدت هذه الصعاب وقاومتها، فلم يستسلم أهل الصحراء لهذه الصعاب وسعوا جاهدين بكل ما اتيح لهم من مقدرات إلى مجابهة هذه الصعاب.

لقد عاش أهل سوف منذ القدم في صراع مرير مع البيئة الصحراوية القاسية في مقابل قلة الوسائل وبساطتها، إلا أن ذلك لم يمنع اهل المنطقة من ممارسة العديد من الانشطة الاقتصادية كالزراعة والصناعة والتجارة وكان لهم ثقافتهم العمرانية الخاصة التي تجاوبت مع الظروف الطبيعية بروعة طرازها وبراعة اتقانها حتى سميت المنطقة بأحد روائع طرازها وفكرها العمراني مدينة **الألف قبة وقبة**.

الهوامش:

[1] - الأطلس العالمي: بيروت، لبنان. مكتبة الصغار ، 1996 ، ص91 .

[2] - المنجد في اللغة والأعلام، ط40، بيروت: دار المشرق، 2003 ، ص 417 .

[3] - الأطلس العالمي: مرجع سابق، ص167.

[4] - إن سكان التجمعات الحضرية التي تنتمي إلى الإقليم الصحراوي بالصحراء الجزائرية أغلبهم ينحدرون من مناطق بدوية أو أنها كانت بدوية حتى السنوات الأخيرة كمناطق الجلفة والأغواط، وبسكرة، وورقلة، وغرداية، والوادي، وتبسه وغيرها، وبالتالي نجد أن بعض الممارسات في المجال الطبي داخل الحضر لا تختلف كثيرا عن المناطق البدوية بها.

[5] - ضيف لزهر: البيئة والمجتمع: دراسة تحليلية للمرض والصحة في البيئة الصحراوية، مطبعة مكتبة إقرأ،قسنطينة،2010 ،ص 23

[6] - www.khayama.com/nan/wadsouf.htm 16/02/2011 -10:30

[7] - بن سالم بن الطيب بالهادف: سوف تاريخ وثقافة، مطبعة الوليد، كوينين، الوادي، 2008، ص:46

[8] - أنظر عثمان زقب: "الأوضاع الإقتصادية و الإجتماعية في منطقة وادي سوف 1918- 1947 وتأثيرها على العلاقات مع تونس وليبيا"، رسالة ماجستير، قسم التاريخ، جامعة الحاج لخضر باتنة،2006/2005

[9] - بن سالم بن الطيب بالهادف: مرجع سابق،ص:47

[10] - عثمان زقب: "الأوضاع الإقتصادية و الإجتماعية في منطقة وادي سوف 1918- 1947 وتأثيرها على العلاقات مع تونس وليبيا"، رسالة ماجستير، قسم التاريخ، جامعة الحاج لخضر باتنة،2006/2005، ص: 18،17)

[11] - علي محمد مكاوي: الإنسان والبيئة و الصحة ، دار الكتب العربية، مصر، 2003، ص 21.

[12] - محمود عودة: أسس علم الإجتماع، دار النهضة العربية، بيروت، ص: 150

[13] - بن سالم بن الطيب بالهادف: مرجع سابق، ص: 151

[14] - عبد الله بن محمد العياشي: الرحلة العياشية 1661-1663 ، المجلد الأول، الطبعة الأولى، دار السويدي للنشر والتوزيع،الإمارت،2006،ص 123

[15] - عثمان زقب: مرجع سابق، ص:19

[16] - غرسة فتية يتراوح عمره عمرها بين 3-6 سنوات يتم فصلها عن النخلة الأم.

[17] - www.khayma.com 16/02/2011 / 13:51

[18] - هي عبارة عن قفة كبيرة مصنوعة من السعف تستعمل في رفع الرمال.

[19] - عثمان زقب: مرجع سابق، ص: 19

[20] - الخمج: أذا كان العام كثير المطر وارتفعت نسبة الرطوبة في الجو فإن الثمار ترتوي بالماء عند القطميرة فتتعفن قبل نضوجها

[21] - عثمان زقب: المرجع السابق،ص:19

[22] - بن سالم بن الطيب بالهادف: مرجع سابق،ص:156

[23] - عثمان زقب: مرجع سابق، ص: 20

[24] - عثمان زقب: مرجع سابق،ص:20

[25] - نقلا عن:17:38 .15/02/2011 .ashab.maktoob.com/view/htm

[26] - عثمان زقب: مرجع سابق، ص: 21

[27] - ابراهيم العوامر: الصروف في تاريخ وادي سوف ، منشورات ثالة. الجزائر.2007ص 99.

[28] - عثمان زقب: مرجع سابق، ص ص 163-165

[29] - موسوعة ويكيبيديا، وادي سوف. نقلا عن: 17:00 16/02/2011 .http:/ar.wikkipedia.org/wiki

[30] - محمود فهمي الكردي: تأثير أنماط العمران على تشكيل بعض عناصر الثقافة الشعبية، الطبعة الثانية، مركز البحوث والدراسات الإجتماعية، القاهرة، مصر،2002،ص11

[31] - خلف الله بوجمعة: "ملامح الإستدامة في العمارة والعمران التقليدي الجزائري – حالة قصر بوسعادة بالجزائر"، مجلة العمران والتقنيات الحضرية، العدد الثالث، 2008.